تفسير

البحر المحيط

لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي

المتوفى سنة ٧٤٥هـ

دراسة وتحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود — الشيخ علي محمد معوض

شارك في تحقيقه

الدكتور زكريا عبد المجيد النوقي
أستاذ اللغة العربية بجامعة الأزهر

الدكتور أحمد النجولي الجمل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

قرظه

الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

الجزء الثالث

المحتوى

آل عمران: ١٠٢ - المائدة: ٨١

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاكس: ٠٠/١٢١٢/ ٤٧٨١٣٧٣

﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء** ﴾ لما ذكر تعالى تصرفه في أحكام المحاربين وأحكام السُرّاق ، ولم يحابِ ما ذكر من العقوبات عليهم ، نبه على أن ذلك هو تصرف في ملكه ، وملكه لا معقب لحكمه ، فيعذب من يشاء عذابه ، وهم المخالفون لأمره، ويغفر لمن يشاء وهم التائبون ، والخطاب في ﴿ ألم تعلم ﴾ قيل : للنبي ـ ﷺ ـ وقيل : لكل مكلف ، وقيل : للمجترىء على السرقة ، وغيرها من المحظورات ، فالمعنى : ألم تعلم أنك عاجز عن الخروج عن ملكي ، هارباً مني ومن عذابي ، فلم اجترأت على ما منعتك منه ، وأبعد من ذهب إلى أنه خطاب اليهود ، كانوا بحضرة الرسول ، والمعنى : ألم تعلموا أنه له ملك السموات والأرض ، لا قرابة ولا نسب بينه وبين أحد حتى يحابيه ، ويترك القائلين ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ المائدة [١٨] ، قال الزمخشري[(١)] ﴿ من يشاء ﴾ : من يجب في الحكم تعذيبه والمغفرة له من المصرّين والتائبين انتهى ، وفيه دسيسة الاعتزال ، وقد يسقط حد الحربي إذا سرق بالتوبة ، ليكون أدعى له إلى الإسلام ، وأبعد من التنفير عنه ، ولا نسقطه عن المسلم لأن في إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ البقرة [١٧٩] ، وقال ابن عباس والضحاك ﴿ يعذب من يشاء ﴾ أي : من مات على كفره ﴿ ويغفر لمن يشاء ﴾ ممن تاب عن كفره ، وقيل : ذلك في الدنيا ، يعذب من يشاء في الدنيا على معصيته بالقتل والخسف والسبي والأسر ، وإذهاب المال والجدب والنفي والخزي والجزية ، وغير ذلك ، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتوبة عليه من كفره ومعصيته ، فينقذه من الهلكة ، وينجيه من العقوبة ، ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ كثيراً ما يعقب هذه الجملة ما دل على التصرّف التام والملك والخلق والاختراع ، وهي في غاية المناسبة عقيب ما ذكروه ، من ذلك قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ الآيات

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ
لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ
وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾
سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن
تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا
ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ

---

(١) انظر الكشاف ١/٦٣٣ .

ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ
وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ
بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ
وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ
وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا
عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ
شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟
ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

السحْت(١) والسحُت بسكون الحاء وضمها : الحرام ، وسمي بذلك ، لأنه يسحت البركة ، أي : يذهبها يقال : سحته الله ، أي : أهلكه ، ويقال : أسحته ، وقرىء بهما في قوله ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ طه [٦١] أي : يستأصلكم ويهلككم ، ومنه قول الفرزدق :

وَعَضُّ زَمَـانٍ يَـا ابْنَ مَـرْوَانَ لَمْ يَـدَعْ ... مِـنَ الْمَـالِ إلاَّ مُسْحِتـاً أَوْ مُـجْلِفُ(٢)

ومصدر الثلاثي سَحَت بفتحتين ، وسحْت بإسكان الحاء ، وقال الفراء : أصل السحت كلب بالجوع ، ويقال : فلان مسحوت المعدة ، إذا كان لا يلقى أبداً إلا خائفاً ، وهو راجع لمعنى الهلاك ، الحَبر(٣) : بفتح الحاء وكسرها العالم ، وجمعه الأحبار ، وكان أبو عبيد ينكر ذلك ، ويقول : هو بفتح الحاء ، وقال الفراء : هو بالكسر ، واختار أبو عبيد الفتح ،

(١) السُّحْتُ والسُّحُتُ : كل حرام قبيح الذكر ، وقيل : هو ما خَبُثَ من المكاسب وحَرُمَ ، فلزم عنه العار وقبيح الذكر ، كثمن الكلب والخمر والخنزير ، والجَمْعُ أسحاتٌ وإذا وقع الرجل فيها قيل : قد أسحت الرجل ، والسُّحْتُ : الحرام الذي لا يحل كسبُهُ ، لأنه يَسْحَتُ البركة ، أي يُذْهِبهَا .

لسان العرب ٣/١٩٤٩ .

(٢) البيت للفرزدق انظر ديوانه ٥٥٦ والمحتسب ١/١٨٠ ، الخصائص ١/٩٩ شرح المفصل لابن يعيش ١/٣١ ، الإنصاف ١٨٨ والخزانة ٢/٣٤٧ .

(٣) الحِبْرُ والحَبْرُ : العالم ، ذمِّيًّا كان أو مسلماً ، بعد أن يكون من أهل الكتاب وكذلك الحِبْرُ والحَبْرُ في الجمال والبهاء . .

لسان العرب ٢/٧٤٨ .

وتسمى هذه السورة سورة الأحبار ، ويقال : كعب الأحبار ، والحِبر بالكسر : الذي يكتب به ، وينسب إليه الحبري الحبار ، ويقال : كتب الحبر ، لمكان الحبر الذي يكتب به ، وسمي حبراً لتحسينه الخط وتبيينه إياه ، وقيل : سمي حبراً لتأثيره في الموضع الذي يكون به من الحبار وهو الأثر ، العين : حاسة الرؤية ، وهي مؤنثة ، وتجمع في القلة على أعين ، وأعيان ، وفي الكثرة على عيون ، وقال الشاعر :

وَلَـكِـنَّـنِـي أَغْـدُو عَـلَيَّ مُـفَـاضَـةٌ دِلَاصٌ كَـأَعْـيَـانِ الْـجَـرَادِ الْـمُـنَـظَّمِ

ويقال للجاسوس : ذو العينين ، والعين لفظ مشترك بين معان كثيرة ، ذكرها اللغويـون ، الأنف : معروف ، والجمع : آناف وأنف وأنوف ، ﴿ المهيمن ﴾[1] : الشاهد الرقيب على الشيء ، الحافظ له ، وهو اسم فاعل من هيمن ، قالوا : ولم يجيء على هذا الوزن إلا خمسة ألفاظ ، هيمن ، وسيطر وبيطر ، وحيمر ، وبيقر ، ذكر هذا الخامس الزجاجي في شرحه خطبة أدب الكاتب ، ومعناه : سار من الحجاز إلى اليمن ، ومن أفق إلى أفق وهيمن بنا أصل ، وذهب بعض اللغويين إلى أن مهيمناً اسم فاعل من أمن غيره من الخوف ، قال : فأصله : مأمن ، قلبت الهمزة الثانية ياء ، كراهة اجتماع الهمزتين ، فصار مؤيمن ، ثم أبدت الهمزة الأولى هاء ، كما قالوا : أهراق في أراق ، وهياك في إياك ، وهذا تكلف لا حاجة إليه ، وقد ثبت نظير هذا الوزن في ألفاظ ، فيكون هذا منها ، وأيضاً فالهمزة في مؤمن اسم فاعل من آمن ، قد سقطت كراهة اجتماع الهمزتين ، فلا يدعى أنها أقرت وأبدل منها ، وأما ما ذهب إليه ابن قتيبة من أنه تصغير مؤمن ، وأبدلت همزته هاء ، فقد كتب إليه أبو العباس المبرد ، يحذره من هذا القول ، واعلم أن أسماء الله تعالى لا تصغـر ، الشرعة[2] : السنة والطريقة ، شرع يشرع شرعاً ، أي : سنّ ، والشارع ، الطريق الأعظم ، ومنزل شارع إذا كان بابه قد شرع إلى طريق نافذ ، المنهاج والمنهج : الطريق الواضح ،.ونهج الأمر استبان ، ونهجت الطريق أبنته ، وأوضحته ، ونهجت الطريق : سلكته ، **﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾** روي عن أبي هريرة وابن عباس وجماعة : أن سبب نزولها أن يهودياً زنى بيهودية ، قيل : بالمدينة ، وقيل : بغيرها من أرض الحجاز ، فسألوا الرسول ـ ﷺ ـ وطمعوا أن يكون غير الرجم حدهما ، وكان في التوراة رجم ، فأنكروا ذلك أن يكون في التوراة ، وافتضحوا إذا أحضروها ، وحكم الرسول فيهما بالرجم وأنفذه[3] ، وقال قتادة : السبب أن بني النضير كانوا إذا غزوا بني قريظة ، فإن قتل قرظي نضيرياً قتل به ، أو نضيري قرظياً أعطى الدية[4] ، وقيل : كانت دية القرظي على نصف دية النضيري ، فلما جاء الـرسول المـدينة طلبت قـريظة الاستـواء ، لأنهما ابنا عم ، وطلبت الحكـومة إلى الرسول ـ ﷺ ـ فقالت بنو النضير : إن حكم بما نحن عليه فخذوه ، وإلا فاحذروا ، وقال السدي : نزلت في رجل من الأنصار ، وهذا بعيد من مساق الآية ، وذكروا أن هذا الرجل هو أبو لبابة بن عبد المنذر ، أشارت إليه قريظة يوم حصرهم

---

(١) المُهَيْمِنُ والمُهَيْمَنُ : اسم من أسماء الله ـ تعالى ـ في الكتب القديمة . وفي التنزيل ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ قال بعضهم : معناه الشاهد يعني وشاهداً عليه . والمهيمن : الشاهد وهو من آمن غيره من الخوف ، وأصله : أَأْمَنَ فهو مؤأمِنٌ بهمزتين قلبت الهمزة الثانية ياء كراهة اجتماعهما فصار مُؤَيْمِنٌ ، ثم صُيِّرت الأولى هاء كما قالوا : هراق وأراق . .
لسان العرب ٦/٤٧٠٥ .

(٢) الشَّرِيعةُ والشِّرْعَةُ : ما سن الله من الدين ، وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر . . . . وقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً ﴾ قيل في تفسيره : الشرعة الدين ، والمنهاج الطريق وقيل : الشرعة والمنهاج جميعاً الطريق .
لسان العرب ٤/٢٢٣٨ .

(٣) انظر البغوي ٢/٣٧ ـ ٣٨ .

(٤) انظر البغوي ٢/٣٧ ـ ٣٨ .

أبداً ، فهو خبر عن المستقبل لا الماضي ، وقيل : نفي الإيمان بالتوراة ، وبموسى عنهم ، وقيل : هو تعليق بقوله ﴿ وكيف يحكمونك ﴾ أي : أعجب لتحكيمهم إياك ، وليسوا بمؤمنين بك ، ولا معتقدين في صحة حكمك ، وذلك يدل على أنهم إنما قصدهم تحصيل منافع الدنيا ، وأغراضهم الفاسدة ، دون اتباع الحق ، ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس والحسن : نزلت في الجاحدين حكم الله ، وهي عامة في كل من جحد حكم الله ، وقال البراء بن عازب : نزل ﴿ يا أيها الرسول ﴾ إلى ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ في اليهود خاصة ، وذكر قصة رجم اليهوديين ، وقيل لحذيفة :﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ نزلت في بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، وقال الحسن وأبو مجلز وأبو جعفر : هي في اليهود ، وقال الحسن : هي علينا واجبة ، وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يقول لما نزلت هذه الآية « نحن نحكم على اليهود ، وعلى من سواهم من أهل الأديان » ، وفي الآية ترغيب لليهود ، بأن يكونوا كمتقدميهم من مسلمي أحبارهم ، وتنبيه المنكرين لوجوب الرجم ، وقال جماعة : الهدى والنور سواء ، وكرر للتأكيد ، وقال قوم ليسا سواء فالهدى محمول على بيان الأحكام والنور والبيان للتوحيد والنبوة والمعاد ، قال الزمخشري[(١)] : يهدي للعدل والحق ونور يبين ما استبهم من الأحكام ، وقال ابن عطية : الهدى الإرشاد للمعتقد والشرائع ، والنور : ما يستضاء به من أوامرها ونواهيها ، وقيل : المعنى : فيها بيان أمر الرسول ، وما جاؤوا يستفتون فيه ، ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا** ﴾ ظاهر قوله ﴿ النبيون ﴾ الجمع ، قالوا : وهم من لدن موسى إلى عيسى ، وقال عكرمة : محمد ومن قبله من الأنبياء ، وقيل : النبيون الذين هم على دين إبراهيم ، وقال الحسن والسدي : هو محمد ـ ﷺ ـ وذلك حين حكم على اليهود بالرجم ، وذكره بلفظ الجمع ، كقوله ﴿ أم يحسدون الناس ﴾ النساء [٥٤] و ﴿ الذين أسلموا ﴾ وصف مدح الأنبياء ، كالصفات التي تجري على الله تعالى ، وأريد بإجرائها التعريض باليهود والنصارى ، حيث قالت اليهود : إن الأنبياء كانوا يهوداً ، والنصارى قالت : كانوا نصارى ، فبين أنهم كانوا مسلمين ، كما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولذلك جاء ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ الحج [٧٨] ونبه بهذا الوصف أن اليهود والنصارى بعداء من هذا الوصف الذي هو الإسلام ، وأنه كان دين الأنبياء كلهم قديماً وحديثاً ، والظاهر أن ﴿ الذين هادوا ﴾ متعلق بقوله ﴿ يحكم بها النبيون ﴾ ، وقيل : بـ ﴿ أنزلنا ﴾ ، وقيل : التقدير : هدى ونور للذين هادوا ، يحكم بها النبيون ، وفي قوله ﴿ للذين هادوا ﴾ تنبيه على أنهم ليسوا مسلمين ، بل هم بعداء من ذلك ، واللام في ﴿ للذين هادوا ﴾ إذا علقت بيحكم للاختصاص ، فيشمل من يحكم له ، ومن يحكم عليه ، وقيل : ثُمَّ محذوف ، أي : للذين هادوا وعليهم ، وقيل : اللام بمعنى على ، أي : على الذين هادوا ، ﴿ **والربانيون والأحبار** ﴾ هما بمعنى واحد ، وهم العلماء قاله الأكثرون ، ومنهم ابن قتيبة والزجاج ، وقال مجاهد : الربانيون الفقهاء العلماء ، وهم فوق الأحبار ، وقال السدي : الربانيون : العلماء ، والأحبار : الفقهاء ، وقال ابن زيد : الربانيون : الولاة ، والأحبار : العلماء ، وقيل : الربانيون : علماء النصارى ، والأحبار : علماء اليهود ، وقد تقدم شرح الرباني ، وقال الزمخشري[(٢)] : ﴿ والربانيون والأحبار ﴾الزهاد والعلماء من ولد هارون ، الذين التزموا طريقة النبيين ، وجانبوا دين اليهود ، وقال السدي : المراد هنا بالربانيين والأحبار الذين يحكمون بالتوراة : ابنا صوريا ، كان أحدهما ربانياً ، والآخر حبراً ، وكانا قد أعطيا النبي عهداً أن لا يسألها عن شيء من أمر التوراة إلا أخبراه به ، فسألهما عن أمر الرجم ، فأخبراه به على وجهه ، فنزلت الآية مشيرة إليهما ، قال ابن عطية : وفي هذا نظر ، والرواية الصحيحة : أن ابنا صوريا وغيرهم جحدوا أمر الرجم ، وفضحهم فيه عبد الله بن سلام ، وإنما اللفظ في كل حبر مستقيم فيما مضى من الزمان ، وأما في مدة محمد ـ ﷺ ـ فلو وجد لأسلم ، فلم يسم حبراً ولا ربانياً انتهى ، ﴿ بما

---

(١) انظر المصدر نفسه .

(٢) انظر المصدر نفسه ١/٦٣٧ .

استحفظوا من كتاب الله ﴾ الباء في ﴿ بما ﴾ للسبب ، وتتعلق بقوله ﴿ يحكم ﴾ واستفعل هنا للطلب ، والمعنى : بسبب ما استحفظوا ، والضمير في ﴿استحفظوا﴾ عائد على النبيين والربانيين والأحبار، أي : بسبب ما طلب الله منهم حفظهم لكتاب الله ، وهو التوراة ، وكلفهم حفظها ، وأخذ عهده عليهم في العمل بها والقول بها ، وقد أخذ الله على العلماء حفظ الكتاب من وجهين ، أحدهما : حفظه في صدورهم ودرسه بألسنتهم ، والثاني : حفظه بالعمل بأحكامه واتباع شرائعه ، وهؤلاء ضيعوا ما استحفظوا ، حتى تبدلت التوراة ، وفي بناء الفعل للمفعول ، وكون الفعل للطلب ما يدل على أنه تعالى لم يتكفل بحفظ التوراة ، بل طلب منهم حفظها ، وكلفهم بذلك ، فغيروا وبدلوا وخالفوا أحكام الله ، بخلاف كتابنا ، فإن الله تعالى قد تكفل بحفظه ، فلا يمكن أن يقع فيه تبديل ولا تغيير ، قال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ الحجر [٩] وقيل : الضمير في ﴿ استحفظوا ﴾ عائد على الربانيين والأحبار فقط ، والذين استحفظهم التوراة هم الأنبياء ، ﴿ **وكانوا عليه شهداء** ﴾ الظاهر أن الضمير عائد على كتاب الله أي : كانوا عليه رقباء ، لئلا يبدل ، والمعنى : يحكم بأحكام التوراة النبيون بين موسى وعيسى ، وكان بينهما ألف نبي ﴿ للذين هادوا ﴾ يحملونهم على أحكام التوراة ، لا يتركونهم أن يعدلوا عنها ، كما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ من حملهم على حكم الرجم ، وإرغام أنوفهم وإبائهم عليهم ما اشتهوه من الجلد ، وقيل : الهاء تعود على الحكم ، أي : وكانوا شهداء على الحكم ، وقيل : عائد على الرسول ، أي : وكانوا شهداء على أنه نبي مرسل ، ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً** ﴾ هذا نهي للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم ، وإذهابهم فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل بخشية سلطان ظالم ، أو خيفة أذية أحد من الغرماء والأصدقاء ، ولا تستعطوا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، كما حرف أحبار اليهود كتاب الله ، وغيروا أحكامه ، رغبة في الدنيا وطلباً للرياسة ، فهلكوا ، وهذا نهي عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم والتحيل للدنيا بالدين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن معناه ﴿ لا تخشوا الناس ﴾ في إظهار صفة محمد ـ ﷺ ـ والعمل بالرجم ﴿ واخشون ﴾ في كتمان ذلك ، ولما كان الإقدام على تغيير أحكام الله سببه شيئان ، الخوف والرغبة ، وكان الخوف أقوى تأثيراً من الرغبة قدم النهي عن الخوف على النهي عن الرغبة والطمع ، والظاهر أن هذا الخطاب لليهود على سبيل الحكاية ، والقول لعلماء بني إسرائيل ، وقال مقاتل : الخطاب ليهود المدينة ، قيل لهم : لا تخشوا يهود خيبر أن تخبروهم بالرجم ، واخشوني في كتمانه انتهى ، وهذا وإن كان خطاباً لعلماء بني إسرائيل ، فإنه يتناول علماء هذه الأمة ، وقال ابن جريج : هو خطاب لهذه الأمة ، أي : لا تخشوا الناس ، كما خشيت اليهود الناس ، فلم يقولوا الحق ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ظاهر هذا العموم ، فيشمل هذه الأمة وغيرهم ، ممن كان قبلهم ، وإن كان الظاهر أنه في سياق خطاب اليهود ، وإلى أنها عامة في اليهود وغيرهم[١] ذهب ابن مسعود وإبراهيم وعطاء وجماعة ، ولكن كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، يعني : أن كفر المسلم ليس مثل كفر الكافر ، وكذلك ظلمه وفسقه لا يخرجه ذلك عن الملة قاله ابن عباس وطاوس ، وقال أبو مجلز : هي مخصوصة باليهود والنصارى وأهل الشرك ، وفيهم نزلت[٢] ، وبه قال أبو صالح ، قال : ليس في الإسلام منها شيء ، وروي في هذا حديث عن البراء عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنها الثلاثة في الكافرين ، وقال عكرمة والضحاك : هي في أهل الكتاب[٣] ، وقاله عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وذكر أبو عبيدة هذه الأقوال ، فقال : إن بشراً من الناس يتأوّلون الآيات على ما لم تنزل

---

(١) انظر البغوي ٢/ ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) انظر المصدر نفسه .

(٣) انظر المصدر نفسه .